كتب جديدة

الفكر العربي في العصر المتحرر

Arabic Thought in the Liberal Age, 1798 - 1939

by Albert Hourani. Oxford University Press, 1962.

اكثر من باحث في الفكر العربي تردد في السنوات الخمس الاخيرة في درس الموضوع بانتظار ما سيقوله الاستاذ البرت حوراني . فان انصبابه على هذا الموضوع الضخم والمعقد عدة سنوات كان كافيا لان يزرع الهيبة في نفس كل من يحاول اقتحام الموضوع ذاته ، من جهة ، مثلما كان يمني تلك النفس بان تنتظر حتى ينتهي الاستاذ حوراني من دراسته فيفيد الاخرون منه وقد صدرت الدراسة مؤخرا ، عن مطبعة جامعة اكسفورد ، حيث يتولى المؤلف الاشراف على تدريس شؤون الشرق الاوسط وعلى معهده ، وبتعهد المعهد الملكي للشؤون الدولية .

لن يشعر الذين انتظروا الكتاب بشوق ان انتظارهم كان سدى (كما هو الحال في كتب اخرى كثيرة) . فان الكتاب كلمة اخيرة في موضوع قديم ، وهو حكم مستأنف لقضية كثر بها الجدال . ولعل لفظة « كلمة اخيرة » لا تصلح تماما : اذ انها قد توحي الى القارىء ان المؤلف قد توصل في كتابه الى مقررات زعم انها احكام حاسمة ونهائية لا تقبل جدالا ولا استطرادا . والواقع هو عكس ذلك : فان المؤلف يدرس القضايا المعروضة عليه بجهد بالغ ولكنه لا يتطوع قط لاغلاق باب البحث . وقيمة الكتاب الكبرى انه دراسة للقضايا الخطيرة متشعبة ومفصلة ومستندة ومتدرجة وموضوعية ، بحيث تكوّن مطالعتها متعة وفائدة ، بحد ذاتها ، ومن قبل الوصول وبدون الوصول الى احكام نهائية . لذلك فالكتاب « كلمة اخيرة » لا يجوز لاي كاتب اخر في الموضوع بعد الان ان يتجاهلها ولا ان يقفز فوقها ؛ وقد لا يستطيع كاتب اخر بعد الان ان يمنع نفسه من اغراءات الافادة منها والاعتماد عليها اعتمادا مباشراً .

اما موضوع الكتاب فليس بالجديد. لقد فرض الفكر العربي الحديث نفسه على عدد من الباحثين ، عربا واجانب، في الثلث الاخير من القرن الحالي ، وظفر بمجموعة من الدراسات القيمة التي تناول كل منها جانباً واحداً او عهداً واحداً من جوانب هذا الفكر وعهوده المتنوعة . ولعل هذا الاهتمام المباشر والحديث نسبيا بتتبع اصول الفكر العربي وتاريخه وتطوره يعود ، في الدرجة الاولى ، الى ان عقلية العصر وعقلية مؤرخيه انما هي عقلية نظرية عقدية ، تهتم بالمبادىء والافكار والاتجاهات ، اكثر مما تهتم بالاحداث المجردة وبالاجراءات الحكومية الرسمية وبالانقلابات والانتخابات والتطورات السياسية الصرف التي تتعاقب في كل يوم وساعة . وبسبب هذا الاهتمام بالفكر العربي اصبح لقيمته ، بل حرمته ، بالنسبة الى تلك الاحداث الانية ، واصبح له طلابه المختصون به ، ولم تعد اهتمامات القارىء العربي تنحصر في ما فعله هذا المسؤول او ذاك ، وجله للدعاوة او تحت تأثير ظرف معين .

فرق رئيسي بين دراسة الاستاذ حوراني وسائر الدراسات في الموضوع : ان الدراسة المذكورة تأخذ الموضوع بكامله، بجوانبه وبمراحله

وبشخصياته المتعددة، وتناولها كلها كقضية واحدة متكاملة تامة . وفي الوقت نفسه اجاد المؤلف في توزيع عنايته (ووقته وصفحات الكتاب) على عدد كبير من ابطال دراسته ، من مفكري العرب في قرن ونصف من الزمان . فلم يحصر نفسه بواحد ويتجاهل الاخر ، بل وزع الاهتمام عليهم بالتساوي ، او بالنسبة الى اثر كل منهم في الفكر العربي بوجه عام . وهذه ناحية يتميز الكتاب بها على معظم الدراسات الاخرى في الموضوع — وقد صدر اخرها منذ سنتين لاحد طلاب الاستاذ حوراني . وكانت دراسة قيمة ومثمرة ، انما لم تراع هذا « التوزيع العادل ».

يتناول الكتاب نمو الفكر العربي وتطوره في مدى مائةواربعين سنة تقريبا . حدّاه الزمنيان هما حملة نابليون على مصر في ١٧٩٨ واشتعال نيران الحرب العالمية الثانية في ١٩٣٩ . اي ان المؤلف اختار للفكر العربي حدين اوربيين عالميين، خارجيين وغير عربيين . انما برر له ذلك ان هذين الحدثين الاجنبيين قد اثرا في العرب ، وفي تاريخ العرب الفكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي ، آثارا مباشرة جدا بحيث لم يعودا غريبين عن العرب وان كانا قد نشأا في خارج الوطن العربي وخارج ارادة شعبه ، فمن يفكر ان حملة نابليون الى بلاد العرب كانت ابرز جسر ربط بين الشرق والغرب بعد الفتوحات الاسلامية وبعد الفتوحات الصليبية ؟ يتبنى الاستاذ حوراني فكرة اهمية الجسر النابليوني وان كان لا يغالي فيه ولا يجاري الرأي السائد الذي اعطى تلك الحملة اهمية تفوق ما اعطاه لاي حدث سياسي او عسكري آخر في القرون الحديثة ، من الجهة الواحدة ، ولا يجاري ، من الجهة الاخرى ، رأي زميله في جامعة لندن الاستاذ برنارد لويس ، الذي يخفف من الآثار الحضارية لهذه الحملة ويجعلها ثانوية بالنسبة لآثار الثورة الفرنسية في تركيا عن طريق البلقان وشرق اوربا . وعند الاستاذ حوراني تكون تلك الحملة ، اي سنوات ما بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وما رافقها وما نتج عنها ، بابا واسعا انطلقت منه المؤثرات الاوربية في الفكر العربي في اكثر من سبيل ومجال.

اما اختيار بدء الحرب العالمية الاخيرة نقطة يتوقف البحث عندها فانه ليس مجرد عملية لبقة يحاشي المؤلف بها مخاطرة خوض المواضيع المعاصرة جدا والنزول الى معترك ابحاث وامور حساسة لا نزال نحياها ونتأثر بها ونؤثر فيها الى اليوم . فقد كانت السنة ١٩٣٩ ، من جهة ثانية، فاصلا صحيحاً آخر يفصل بين مرحلة واخرى من مراحل الفكر العربي ، اذ ان ما لحق بالحرب من تفكير واحاسيس ووعي انما هو عهد جديد مستقل عما سبقه من عهود في تعداد الفكر العربي ، السياسي والثقافي .

يوحي عنوان الكتاب « الفكر العربي في العصر المتحرر » وتحديده بالحدثين العالميين غير العربيين ، « ١٧٩٨ — ١٩٣٩ » ، بان هناك ارتباطا مباشراً بين الفكر العربي وبين تيارات الفكر الاوربي في فترة القرن ونصف القرن هذه . وهذا ، في الواقع ، هو ما يبذل فيه المؤلف جهده : هو ما يريد ان يبحثه ، وهو ما يريد ان يبرزه بشكل خاص ، بعد ان لمس تجاهل اكثر زملائه من باحثي الموضوع له . فانهم تناولوا الفكر العربي بمعزل عن صنوه الاوربي ، وان كانوا لم يتجاهلوا ارتباط الفكر العربي باحداث اوربا السياسية وبآثارها السياسية في الشرق العربي .

اما عند الاستاذ حوراني فان اثر الفكر الاوربي (وليس مجرد اثر السياسة الاوربية والاستعمار والارساليات والفتوحات) موجود في ذهنه في كل لحظة . فهو ، مثلا ، لا يترك مفكراً عربياً واحدا الا ويحاول ان ينبش عن المؤثرات الاوربية فيه : فيبحث عن نوع ثقافته والكتابات الاوربية التي قرأها وتأثر بها (بلغاتها الاجنبية او

المترجمة) . وقد استغل المؤلف في مسعاه هذا ثقافته الواسعة ، واتقانه عددا من اللغـات الاوربية ، واطلاعه على التراث الفكري والادبي في اوربا اطلاعا لا يقل عن اطلاعه على الفكر العربي .

اذا فالكتاب شبه مقارنة بين الفكرين العربي والاوربي . او قـل هو بحث في الفكر العربي بمقاييس وانطلاقات واهتمامات الفكر الاوربي . لذلك فان المؤلف يختار عددا من القضايا الرئيسية التي تهم المفكر الاوربي عـادة ويجعلها محور استعراضه لتطور الفكر العربي ، ويثير بواسطتها عددا من الاسئلة ويحاول ان يستخلص الاجوبة عليها من كتابات كل مفكر وكل عهد من المفكرين والعهود التي يتناولها : ما هي علاقة الدولة بالدين ، وما هي علاقة الفرد بالجماعة ، وما هو دور العقل في التحكم بامور المجتمع ، وما هي تحديدات الامة ، وعلى ماذا تقوم العصبية القومية ، وما هي الفضائل الاجتماعية ؟

بديهي ان لا سبيل الى الوصول الى اجوبة على هذه التساؤلات في مجتمع كالمجتمع العربي الا من خلال فهم الاسلام ، قرآناً وشريعة ، فهما صحيحا. فقد ارتبط الفكر العربي بالاسلام ارتباطا وثيقا، ان في عصوره الاولى او الحديثة . بل ان العلمانيين والعلمانيين نسبياً من المفكرين العرب لم يتجاهلوا الاثر الديني في الانفس، لذلك لم يكن غريباً ان يكون التفكير الديني هو منطلق الاستاذ حوراني — اما الاحداث السياسية فقد جعلها مجرد نتيجـة وتتمة لذلك التفكير . وحتى القومية العربية، وهي الحركة المفروض ان تكون علمانية وغير مرتبطة بمذهب ديني معين ، لا يدرسها المؤلف بمعزل عن الاسلام ، ولا يتجاهل ارتباطها بمذهب الغالبيـة العربية حتى عند بعض مفكري العروبة ومفكري الاسلام معا .

ولان الفكر الديني كان هو الغالب على تفكير معظم رجال الفكر العربي ، اضطر المؤلف ان يتناول القضايا والاسئلة الانفة الذكر من اصولها وان يعود الى جذورها العميقة ، فيدرس الماوردي في احكامه السلطانية والفارابي في مدينته الفاضلة وابن تيمية في سياسته الشرعية وابن خلدون في مقدمته . كما اضطر ان يدرس تقاليد الحكم في العهد العثماني .

اما رواد الفكر العربي في اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، ممن تأثروا بالاسلام وباوربا في آن واحد ، على درجات متفاوتة ، فان المؤلف يقسمهم الى جماعات تلتقي كل منها حول محور رئيسي : جماعة القوميين المصريين الذين اختلطت العصبية الاسلامية العثمانية عندهم مع نزعتهم المصرية الاقليمية الاستقلالية ، كزعيمي الحزب الوطني مصطفى كامل ومحمد فريد ؛ وجماعة القوميين العرب في غرب آسيا ، ممن تأثروا بكتابات الكواكبي والمازوري وعملوا بالحركات القومية ضد تركيا قبل عهود الانتداب ؛ وجماعة السوريين في مصر ، وكانوا عموماً اصحاب الفكر المتحرر والعلماني ودعاة استخدام النقد الذاتي والموضوعية العلمية في معالجة كافة امور المجتمع ، كأديب اسحق وشبلي شميل وفرح انطون ؛ واخيراً الجماعة المتحررة من الازهريين ومن طلاب محمد عبده الذين اتجه كل منهم اتجاهاً معيناً حمل فيه معه بذور تعاليم الاستاذين الافغاني وعبده ، كقاسم امين وسعد زغلول واحمد لطفي السيد وطه حسين وعلي عبد الرازق . ومع ان موضوعية المؤلف تحرمه من اطلاق الاحكام والتعميمات ، فانـه لا يحرم القارىء من تقييماته الضرورية لنتاج وتفكير (وخاصة لنوعية تفكير) كل من هؤلاء . وهو لا يخفي اعجابه ، في بعض الاحيان ، بتفوق تلميذ من المفكرين على استاذه : كمحمد عبده على الافغاني ، ولطفي السيد على محمد عبده ، ومحمد فريد على مصطفى كامل .

انيس صايغ